الكون والوجود في الإسلام

د.أحمد أوراغي
-جامعة تلمسان-

لقد جاء الإسلام بصورة شاملة عن الوجود، انطلاقا من ذات الله إلى عملية الإيجاد/الخلق، فالله في الإسلام ذات واعية، هي عبارة عن الكمال المطلق، بيد أن الكمال المطلق لا يشينه أن يتفضل الله بالخلق والإيجاد كما هو دونه، ومن دواعي هذا الكمال أنْ يكون لله عالما، وليس علمه مقصودا على ذاته، و إنما هو علم مطلق شامل، يشمل أيضا ما سوى ذاته من كل موجود وكل ما سيوجد، وكل معدوم يستحيل أن يوجد أو لم يرد له الوجود، فهو الذي خلق العالم حين أراد ذلك، وفي وقت أن اختار لهذا العالم أن يكون ,وهو العليم بكل شيء فيه قال تعالى : ﴿ وما يعزب عن ربّك من مثقال ذرّة في الأرض ولا في السّماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر إلاّ في كتاب مبين﴾[1].

فالإسلام صحح ما تداولته من قبله الأفهام و العقول عن فكرة الوجود في ذاتها، و أعطى فكرة صحيحة عن الوجود السرمدي الذي لا يتحقق إلاّ في الله، ونفى أن يتحقق لشيئين من شأنه الدوام و البقاء،وجودلا أول له و لا نهاية،إذ "يقوم التصور العقدي في الإسلام على عقيدة الإيمان بالله بوصفه الموجود الحق لذاته الذي لا يقبل وجوده العدم، فهو القديم الذي لا بداية لوجوده،وهو الباقي الذي لا نهاية لوجوده "[2]، فكل ما عدا الله إنما هو وجود زماني، وجود يبدأ وينتهي في الزمان، و الله هو الواحد الأحد الذي لا يشاركه ضريب أو مثيل في وجوده السرمدي، هو الخالق والموجد لكل موجود زماني، قال تعالى :﴿ أم خلقوا من غير شيء أم هم الخالقون، أم خلقوا السّماوات والأرض بل لا يوقنون، أم عندهم خزائن ربّك أم هم المسيطرون ﴾[3].

وقد قصد علماء الكلام المسلمون الوجود- تقسيمهم له- على هذين النوعين لا غير، فوجود الله في اعتبارهم وجود سرمدي أزلي لا أول له و لا انتهاء، وقد أطلقوا لفظ العالم على ما سوى الله (ذاته وصفاته) من كل موجود، والعالم عندهم شامل للسماوات والأفلاك وما فيها من كواكب وأقمار، و ما في هذه الأرض من هواء وماء ونباتات وجمادات وأحياء، وأنتجوا في برهنتهم العقلية على حدوث العالم وعدم انفكاكه عن الزمان الذي تقاس فترة وجوده المحدودة بالبداية و النهاية الحتميتين، بأن قسموا العالم وكل موجود فيه إلى قسمين، فالعالم وكل ما فيه إنما أن يكون جوهرا(و هو القائم بنفسه) وإما أن يكون عرضا (وهو ما قام بغيره)، ثم مضى هؤلاء في برهانهم فحكموا بأن الأعراض حادثة لأن بعضها حادث بالمشاهدة،كحدوث السكون و السكون بعد الحركة، وتعاقب الظلمة والنور بتعاقب الليل والنهار...أما ما لم نشاهد حدوثه من الأعراض كسكون بعض الأجسام الساكنة كالجبال،فإن مجرد احتمال تحركها دليل على حدوث هذا السكون، لأن الأجرام كلها متساوية في الأحكام، فيجوز على كل منها ما يجوز على الآخر، وإمكانية تحرك الجبل الساكن يؤكد إمكانية تحرك الجبل كله، وعلى هذا فسكونه طارئ يجوز عليه العدم، لا يكون قديما أبديا في قدمه، لأن القديم إذا كان واجبا لذاته فظاهر أنه لا يجوز عليه العدم، فإن لم يكن واجبا لذاته لم يجزأن يكون صادرا بالاختيار للزوم الحدث له حينئذ، فتعين أن يكون صادرا بطريق التعليل من واجب لذاته، فيلزم استحرار وجوده ما دامت العلة موجودة فلا يجوز عليه العدم، ولما كان العدم جائزا عليه انتفت علة دوامه فهو حادث، وعلى هذا فالأعراض حادثة[4] .

أما الجواهر فدليل حدوثها أنها ملازمة للأغراض الحادثة، وذلك لأن" الجواهر محل للأعرض، و الأعراض قد قام الدليل على حدوثها، و الملازم للحادث حادث، إذن فالجواهر بدورها حادثة، ولما كان العالم لا يخرج عن كونه

إما عرضا أو جوهرا، وكلاهما حادث (محدود في وجوده، وموجود بسبب من غيره) إذن فالعالم كله حادث"[5].

فحدوث العالم إذن مقدمة منطقية في البرهنة على وجوب وجود الله، فالعالم حادث، وكل حادث لا بد له من محدث، وهذا المحدث إما أن يكون واجب الوجود أو جائزه، فلو كان جائزه مجاز عليه العدم "فإن تحقق عدمه ظل العالم في حاجة إلى محدث، وإن لم يتحقق عدمه لكان حادثا ولا حتاج هو أيضا إلى محدث ومحدثه إلى محدث، فإن رجع إلى الأول مباشرة أو بواسطة فدور، وإلا فإن تتابع المحدثون إلى ما نهاية فتسلسل، وكل من الدور والتسلسل باطل، فبطل ما أدى إليه وهو أنه غير واجب الوجود وثبت أنه واجب الوجود"[6].

ومن مشاهد الطبيعة و العالم استند علماء الكلام في البرهنة بطريقة أخرى على وجوب وجود الله إذ أن الممكنات موجودة بالضرورة، وكل موجود ممكن لا بد له من موجد، وهذا الموجد إما أن يكون عين الممكنات، وهذا باطل لاستلزام تقدم الشيء على نفسه، وإما أن يكون جزءها وهذا محال لاستلزامه أن يكون الشيء سبب لنفسه، إن كان هو الجزء الأول أو لنفسه ولما سبقه، إن لم يكن الأول، فلا بد أن يكون الموجد من غير الممكنات، وغير الممكن إما أن يكون مستحيلا أو واجبا، و المستحيل معدوم فلا يحقق الوجود لغيره، لأن فاقد الشيء لا يعطيه، فيتعين إذن أن يكون هذا الموجد واجب الوجود.

فالكون في الإسلام ليس نتيجة للطبيعة كما يزعم البعض، ولا وليد الصدفة، إنما هو خلق الله وإرادته، قال تعالى :﴿الله الذي رفع السماوات بغير عمد ترونها، ثمّ استوى على العرش وسخّر الشّمس و القمر كلّ يجري لأجل مسمّى، يدبر الأمر يفصّل الآيات لعلّكم بلقاء ربّكم توقنون... وهو الذّي مدّ الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كلّ الثّمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى اللّيل النّهار، إنّ في ذلك لآيات لقوم يتفكّرون، وفي الأرض قطع متجاورات

وجنّات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضّل بعضه على بعض في الأكل إنّ في ذلك لآيات لقوم يعقلون ﴾[7].

فالله في العقيدة الإسلامية خالق لأصل وجود الكون ومقدر لسننه ونظامه، ومادام هو الخالق له،فهو المالك لهو المتصرف به و القادر على توسيعه وزيادته وإبادته وإفنائه، و" الكون منتظم لا فوضى، ولكن انتظامه مرتبط بإدارة الله وقدرته، واستمرار هذا النظام منوط بمشيئة الله العليا، إن كل تعليل لحوادث الطبيعة بقانونها تعليل ناقص، لأن القانون واقع يحتاج إلى تعليل وليس القانون موجدا للحادثة من العدم، ولا يتصل بالوعي الهادف، وكل افتراض لقوة كامنة أو خفية إن صح فهو ناقص يحتاج إلى تعليل، هذه القوة الكامنة غير الواعية ولا العاقلة ولذلك كان الإيمان بالله الخالق متمما ومكملا لنظرتها إلى الكون و الطبيعة وما فيها من حركة وتطور ومن سنن و قوانين فهي محتاجة إلى وجوده مفتقرة إلى استمرار إمداده، مؤثرة في مسيرها وكيانها بأمره "[8].

وقد أجمع العلماء على أن الله خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، كما يدل على ذلك النص القرآني، بيد أنهم اختلفوا في طبيعة هذه الأيام، فقد ذهبت طائفة منهم إلى أنها كأيامنا هذه، أم أنها ذات طبيعة أخرى غير الطبيعة الزمنية التي نعرفها نحن عن مفهوم اليوم.

وفي هذا الصدد يقول موريس بوكاي : "ولئن رجعنا إلى نصوص غالب ترجمات القرآن فإننا نقرأ فيها – بالمقابلة مع ما تعلمنا إياه التوراة- أن استمرار الخلق بالنسبة إلى الوحي الإسلامي قد امتد أيضا على مسافة ستة أيام، إننا لا نعرف كيف نعبت على المترجمين عدم إعطائهم الكلمة العربية معناها الأكثر شيوعا، كذلك تظهرها الترجمات

عادة ولكننا نستطيع أن نقرأها في الآية 54 من السورة 7 :﴿**إن ربكم الله الذي خلق السماوات والأرض في ستة أيام**﴾"[9].

ولقد ذهب موريس بوكاي إلى أن استعمال كلمة "يوم" إنما يعني دورة زمنية, وهو الامتداد الزمني لدورات تشكيل الكون, وعليه يقول بوكاي " يمكننا القول بأن القرآن يعبر عن مراحل خلق العالم بأنها ستة, وبمعنى دورات طويلة من الزمن"(10).

ومهما يكن من أمر فالقرآن أكد على أن الله قد خلق السماوات والأرض في ستة أيام, وقد ذكر القرآن عملية الخلق في مواضع عدة "ولم يسرد قصة خلق الكون كلها متتابعة في موضوع ... بل نجده يشير في آيات من سورة متعددة بعضا من عمليات الخلق الكوني, ويعطي- أحيانا- شيئا من الدقة في الوقائع المتلاحقة, التي تشير إلى كيفية الخلق الكوني, علما بأن المنهج القرآني في إشاراته إلى عملية الخلق منجمة, لم يكن منهجا خاصا بعملية الخلق الكوني, وإنما هو منوال قد سار عليه الوحي القرآني في تعامله من معظم الموضوعات الأخرى"(11).

ومن ذلك قوله تعالى :﴿ اللّه الذّي خلق السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام ثمّ استوى على العرش, مالكم من دونه من وليّ ولا شفيع أفلا تتذكّرون ﴾(12), وكذلك قوله في موضع آخر :﴿ ولقد خلقنا السّماوات والأرض وما بينهما في ستّة أيّام وما مسّنا من لغوب ﴾(13).

وقد جاء القرآن الكريم بحقائق كثيرة عن تفصيل هذه الأيام, وكذلك عن الحال الذي كان عليه الكون عند بداية خلقه و الحال التي سيؤول إليها في نهاية أمره, إذ قال سبحانه وتعالى مفصلا حال الكون عند بدء عملية الخلق :﴿ قل إنّكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أندادا, ذلك ربّ العالمين, وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدّر فيها أقواتها في أربعة أيّام سواء للسّائلين, ثمّ استوى إلى السّماء وهي دخّان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو

كرها قالتا أتينا طائعين فقضاهنّ سبع سماوات في يومين و أوحى في كلّ سماء أمرها, وزيّنا السماء الدّنيا بمصابيح وحفظا, ذلك تقدير العزيز العليم﴾[14].

بيد أننا لو جمعنا الأرقام / الأعداد الموجودة في الآية لوجدنا أن عملية الخلق استمرت لثمانية أيام, رغم أن النص القرآني أكد على ستة أيام في مواضع أخرى, ولكن هذا لا يعني البتة أن النص القرآني قد ناقص نفسه أو أنه وقع في لبس, ولقد رد الإمام الشعراوي هذه الشبهة وبين بالحجة معنى الأعداد المذكورة في الآية وحاصل جمعها, حين ذهب إلى أنّ " الذي خلق الأرض في يومين, وجعل الأرض رواسي من فوقها, أي من فوق الأرض, وقدر فيها أقواتها, أي أقوات الأرض, إذن ما يأتي في كلمة أربعة أيام لمخلوق ليس ابتداء و لكنه تتمة لشيء.

الأيام الأربعة لم تتكلم عن خلق جديد, وإنما تكلمت عن إتمام شيء موجود, فالله خلق الأرض في يومين, وجعل فيها رواسي وقدر فيها أقواتها في تمام أربعة أيام... إذن الآية دخل فيها اليومان الأولان في الأربعة.إذن لا تحسب الاثنين مرتين, فعندنا الآن أربعة أيام, بعد ذلك هناك يومان, فالمجموع ستة. فاتفقت آيات الإجمال مع آيات التفصيل, وانتهى الإشكال"[15].

كم أن هذه الآيات الكريمة قد كشفت حقيقة علمية مهمة, وهي أن الكون كان على شكل مادة دخانية في مرحلة نشوئه الأولى, وهي حقيقة اكتشفت علميا بداية القرن العشرين, وقد أشار القرآن الكريم في موضع آخر إلى مصدر هذا الدخان, حيث ذكر أن السماوات وما تحويه من أجرام كانت كتلة واحدة ثم تفتقت جميع مادة هذا الكون من هذه الكتلة, وذلك في قوله تعالى :**﴿ أو لم ير الذين كفروا أنّ السّماوات و الأرض كانت رتقا ففتقناهما وجعلنا من الماء كلّ شيء حيّ أفلا يؤمنون﴾**[16].

وهذه الحقيقة، حقيقة الدخان الكوني التي أشار إليها القرآن ثم تشكل الكون منها، أقرها العلم الحديث، إذ أجمع العلماء على حقيقة الكون في توسع مستمر، والتوسع لا يأتي إلا إذ بدأ الكون من جرم صغير وبدأ حجمه بالازدياد. وقال تعالى في ذلك :﴿ والسّماء بنيناها بأيد وإنّا لموسعون﴾[17]، ويقر العلم " أن العالم في الأزمان الغابرة جدا، التي له التحدث عنها، تكون من طبقة غازية مركبة أساسا من الهيدروجين وجزء من الهيليوم وهو في دوران بطيء هذه الكتلة من السحاب المظلم انقسمت إلى عديد من الأجزاء ذات أبعاد و أحجام ضخمة قدرها الأستروفيزيكيون بمعدل مليار إلى مئة ضعف حجم الشمس الحالي " الذي يساوي أكثر من 300000 ضعف حجم الأرض". وهي أرقام تبرز لنا أهمية أجزاء هذه الطبقة الغازية البدائية التي انبثق عنه فيما بعد وجود المجرات"[18] .

وإذا كان العلم قد أثبت أن الكون كان عبارة عن ظلمة أو دخان انبثق عنه الوجود فيما بعد، إلا أنه لم يبث في الحالة التي سيؤول إليها الكون، فبعض العلماء يرى أن سيبقى في حالة تمدد إلى الأبد، بينما يذهب آخرون إلى أنه سيأتي يوم تتغلب فيه قوة الجذب بين مكوناته على قوة الاندفاع الناتجة عن الانفجار، فيعود الكون من حيث بدأ وينهار على نفسه، وهذا ما يذهب إليه النص القرآني، وذلك في قوله تعالى :﴿يوم نطوي السّماء كطيّ السّجلّ للكتب، كما بدأنا أوّل خلق نعيده، وعدا علينا إنّا كنّا فاعلين﴾[19] وهذه الآية تؤكد حقيقة الانفجار الكوني، فعملية طي السماء هي عكس عملية نشره أو انفجاره، حيث سيعيد الله الكون إلى الحالة التي كان عليها قبل الانفجار: ﴿ كما بدأنا أوّل خلق نعيده ﴾ .

الهوامش :

1- سورة يونس/الآية 61.

2- محمد عثمان الخشت :مدخل إلى فلسفة الدين, دار قباء للطباعة و النشر و التوزيع , القاهرة, 2001,ص 77.

3- سورة الطور الآيات 35- 36- 37.

4- زاهر عزب الزغبي: رؤية إسلامية :لله...الإنسان...الكون, مجلة الأزهر(مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر),جك, س 51,رجب 1399, يونيو1979, ص 1289- 1290.

5- المرجع نفسه,ص 1290.

6- المرجع السابق, ص 1291.

7- سورة الرعد الآيات 2- 3- 4.

8- صابر طعيمة: العقل و الإيمان في الإسلام, دارالجيل,بيروت, ط1, 1399ه/1779م, ص55.

9- موريس بوكاي :التوراة و الإنجيل و القرآن و العلم, ترجمة الشيخ حسن خالد, المكتب الإسلامي ,بيروت, لبنان, ط3, 1411ه/1990م,ص166.

10- المرجع نفسه, ص 168.

11- شايف عكاشة: الدين في ضوء العلم ,قراءة في القرآن و الإنجيل و التوراة, ديوان المطبوعات الجامعية, الجزائر,1998, ص101.

12- سورة السجدة/ الآية 04.

13- سورة ق / الآية 38.

14- سورة فصلت/ من الآية 9إلى الآية 12.

15- شايف عكاشة: الدين في ضوء العلم, ص106.

16- سورة الأنبياء/الآية30.

17- سورة الذاريات/ الآية 47.

18- موريس بوكاي :التوراة و الإنجيل و القرآن و العلم,ص178.

19- سورة الأنبياء/ الآية104